القسم الاول

أ- التاريخ الحديث والمعاصر

المدرسة التاريخية الأوربية في القرن الثامن عشر*

أ. د. ناصر الدين سعيدوني

اكتست الميول التاريخية والتوجيهات الفكرية أثناء القرن الثامن عشر طابعا عقليا تغلب عليه النزعة الواقعية، فقد نحا التاريخ منحى عمليا معتمدا على منهج النقد المحّص ومستندا إلى أصول البحث الموضوعي، وذلك من أجل الوصول إلى الفهم السليم والتقييم الصحيح لقضايا التاريخ، وقد ارتبطت هذه النظرة إلى التاريخ بحركة التنوير (Enlightements/Lumière) التي تميز بها القرن الثامن عشر بأوربا، والتي ارتكزت أساسا على فلسفة عقلية تجريبية مادية تؤمن بالتغيير وتسعى للتجديد في كل شيء، تحدوها في ذلك ثقة مطلقة في العقل، وينصب التفكير فيها حول الإنسان، ولهذا فهي ترفض الميتافيزيقا، ولا تطمئن إلى الدين، بل تهتم بالرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي والجغرافيا والطب...

(*) – هذه الدراسة هي احدى فصول كتاب سوف يُنشر قريبا للمؤلف بعنوان «التاريخ من الجهد الفردي إلى التنظير الحضاري».

حملت حركة التنوير هذه بوادر مجتمع جديد بأوربا تميّز بازدياد في عدد السكان وتوفر نسبي لرأس المال، وبداية حقيقية لثورة تقنية في الزراعة والصناعة والتجارة، برزت مؤشراتها في اكتشاف الآلة البخارية (1769) التي أدخل عليها «جيمس وات» تعديلات بحيث أصبحت آلة ذات أثر مضاعف (1784) واستخدمت في ميدان الغزل والنسيج (1785) وتمّ استعمالها في الصناعة وأصبح في إمكانها انتاج أضعاف ما يمكن أن ينتج بأحدث الأنوال (1800).

ولقد ارتبطت حركة التنوير هذه بالأنظمة الملكية المطلقة التي مثّلها كل من لويس الثالث عشر (1610-1643) ولويس الرابع عشر (1643-1715) بفرنسا وبطرس الأكبر (1682-1725) بروسيا. لكنها عبرت بصدق عن أفكار تحرّرية ساعدت على إعطاء صبغة عقلية ومنطقية لطبيعة السلطة وسلوك الحكام، فكان لإنتاج كتاب عصر التنوير تأثير على الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، وهذا ما عبّر عنه الشاعر الفرنسي هيجو (Hugo) بقوله: «إنّ عام 1789 لم يكن ممكنا لولا المبشرة به «الأنسكلوبيديا»، لقد أعدّ فولتير ظهور ميرابو .. ضعوا جانبا ديدرو فلا يبق دانتون ... ولو أنهم حالوا دون نمو النبتة التي اسمها روسو في مستهل القرن الثامن عشر لما كان من الممكن أن تنمو في أواخر القرن، من باب النتيجة، نبتة أخرى اسمها «روبيسبيار ...».

لقد كان الإهتمام بالتاريخ في عصر التنوير مظهرا من مظاهر الإهتمام بالإنسان في الحاضر، وتعبيرا عن رغبته في التحرّر من آراء الكنيسة وتأثير رجال الدين، فكان التاريخ بحقّ لدى مؤرخي هذه الفترة هو تاريخ العلم والاكتشافات، الذي يوضح تقدم العقل البشري، إذ من خلال وحدة دراسة التاريخ، وليس من منطلق مظهر سلطة الحكام يمكن التعرف على التطور الحضاري، وهذا ما جعل اهتمام مؤرخي هذه الفترة ينصب على شتى مظاهر النشاط الإنساني بمختلف مظاهره، وبالتالي امتزج التفكير العلمي بدراسة التاريخ لكونه تجربة بشرية. وهذا ما أدى إلى أن أصبحت القواعد والأصول الفنية والعلمية للمنهج التاريخي تبتعد عن مجال الدراسات الأدبية والدينية، وتتمايز كذلك عن طرق التحليل الفلسفي، ليصبح للتاريخ في وقت لاحق قواعد منهجية مستقلة بذاتها متميزة عن غيرها من العلوم الإنسانية.

تأثرت المدرسة العقلية ذات النزعة الواقعية والمنحى التحليلي بعاملين أساسين أولهما يتصل بالمادة التاريخية في حدّ ذاتها، وثانيهما يعود إلى نوعية الأفكار الفلسفية التي أثرت على العقلية الأوربية في تلك الفترة.

فبالنسبة للمادة التاريخية، فإنّ المدرسة العقلية من حيث المواضيع والمعلومات اعتمدت على الكتابات التاريخية الأساسية التي تمثل المادة الخام، وهي في أغلبها مجموعات في شكل حوليات وتواريخ عامة (Annales /chroniques)، أصدرتها الحكومات والهيئات الدينية والمؤسسات العلمية بغرض التعريف بماضي الشعوب والأمم الأوربية بعد أن أزداد الإهتمام بحفظ الوثائق ودراستها، وقد برز في هذا المجال خاصة رجال الدين (سلك الرهبنة اليسوعية)، وكان من أهم هذه المجموعات حوليات نظام القديس «بندكت» التي أشرف عليها جان مابيون البندكتي Jean Mabillon (1632-1707) وهيوم Hume (1676-1711م)، ومجموعة جان بولان الهولندي اليسوعي Jean Bolland ومجموعة الشؤون الإيطالية لموراتوري Muratori (1672-1750م)، في 25 مجلدا (صدرت ما بين 1723-1750)، ومجموعة مؤرخي الغال وفرنسا «لبوكي» البندكتي الفرنسي Bouquet (1685-1754م)، ومجموعة التواريخ الانكليزية القديمة لتوماس رايمر Thomas Rymer (1641-1713م)، بالاضافة إلى ما نشر كل من هيوم Hume (1711) ولويس ديونو الهولندي (1795) صاحب «دراسة في عدم يقينية القرون الخمسة الأولى من التاريخ الروماني»، ولابي راينال الفرنسي Abbé Raynal.

وقد صاحب نشر هذه الوثائق زيادة الاهتمام بالتاريخ في البلاطات، فظهرت مجموعة المؤرخين الرسميين المكلفين بكتابة أمجاد الملوك ومآثر الحكام، فقد أوعز لويس الرابع عشر بهذه المهمة للكاتبين بوالو وراسين، ثم خلع لقب المؤرخ الرسمي على فولتير؛ وفي جرمانيا اعتمدت أسرة ولف في هذا العمل على الفيلسوف العالم لينتز (1646-1716)، وفي إنكلترا أسندت المسائل القضائية والدستورية للبرلمان لكلٍّ من كلارندون ثم ماكرلي، فأصبح موضوع التاريخ مرتبطا باختبار المؤرخ وحقّ لراسين القول: «أنّ أول ما يجب على من يريد كتابة التاريخ أن يختار موضوعا جميلا ممتعا».

أما ما يخصّ نوعية الأفكار الفلسفية التي وجهّت الكتابات التاريخية، فهي تندرج في التطور العام للفكر الأوربي نحو العقلانية إنطلاقا من توجّه ليوناردو

دافنسي Leonardo Devinci وأفكار كبلر Képler وغاليلي Galilée (1642-1564) وكوبرنكوس Copemic (1543-1473) وباسكال Pascal (1662-1623)، لتنتهي كل هذه الدراسات إلى نظرة تحليلية للمعرفة باختلاف مظاهرها، فكان أساس هذه النظرة القائمة على الرياضية عند روني ديكارت والتجربة المستندة إلى الفيزياء عند فرانسيس بيكون ومفهوم التحليل العقلي المتأثر باللاهوت عند سبينوزا والجانب الروحي والعقلي العملي عند توماس هوبز.

ونظرا لتأثير هذه الأفكار على الذهنية الأوربية وسيطرتها على المفهوم التاريخي لتطور العالم فإننا نحاول عرضها اجمالا من خلال التعريف بالمفكرين الذين دعوا إليها، وهم ديكارت وبيكون وسبينوزا وهوبز.

1 - **روني ديكارت** René Descartes (1650-1596): ولد بلاهاي بمقاطعة تورين بفرنسا سنة 1596، ودرس عند الجزويت واهتم بالرياضيات لدقتها ووضوح منطقها، زاول مهنة الجندية كضابط بهولندا (1629-1616)، حيث كتب محاولة في الموسيقى Traité de musique(1618) ثم التحق بخدمة دوق بافاريا بألمانيا (1619)، حيث كانت ثمرة تأمله وضع دراسة أسس منهج عام من أجل البحث عن الحقيقة، وبعد أن تجوّل في ربوع ألمانيا وهولندا عاد إلى فرنسا ومنها سافر إلى سويسرا وإيطاليا، وتعرف على مجتمع البندقية، ثم استقر بهولندا مدة عشرين سنة (1649-1629).

كتب ونشر دي كارت في المسائل العلمية: مقاله في المنهج "Le Discours de la méthode" (1637)، وجعله مقدمة لثلاث دراسات وهي النيازك La Dioptrique، ومبحث انكسار الضوء Météores وعلم الهندسة Géométrie كما عرض أفكاره الفلسفية في مؤلف باللاتينية، وهو تأملات حول الفلسفة "Médiations sur la philosophie première" (1640)، اشتهر دي كارت بهذه المؤلفات في أوربا فراسله العلماء وكاتبه الأمراء ، وقصد السويد بدعوة من الملك «كرستين» (1649) حيث وافته المنية متأثرا بقسوة المناخ وسوء حالته الصحية (1650).

أثر ديكارت في العقل الأوربي من خلال بحثه في قواعد التفكير، وأسس المنهج العلمي الذي أجمله في مقالة كتبها عام 1637 حول المنهج بعنوان مقالة في المنهج

للبحث عن الحقيقة في العلوم: Le Discours de la méthode pour bien conduire et chercher la vérité dans les sciences، فكانت أول دراسة تحليلية ذات بعد عالمي باللغة الفرنسية حيث أكد فيها ديكارت على سلطة العقل من خلال مقولة: «أفكر إذا أنا موجود» وسعى للتحرر من قيود كل سلطة خارجية متجاوزة المنطق الطبيعي، فرأى العالم من خلال ثنائية: المادة والعقل، فهناك الطبيعة والفيزياء التي يستدل بها على مادة بلا نهاية ذات طبيعة أبدية، والتي تتبع في حركتها قوانين الميكانيكا، فهي تعدل كل ما يصادفه الفكر من ظواهر الطبيعة دون أن تأخذ في حسابها ما يأتيها من الحواس، لأن صفات الأشياء الخارجية من خلال الحواس لا تدل في الواقع إلا على حالات الشخص الذي يحسها .. وهناك ما فوق الطبيعة (الميتافيزيقا) التي تقوم على الوعي، وتستند على العقل الذي هو المصدر الوحيد للمعرفة، وهذا ما جعل ديكارت رائد التوجّه العقلاني، ومبشرا بانتصار العقل على الإيمان.

لقد فحص ديكارت العقل البشري وتحقق من أنّه معرّض للخطأ بطبيعة تركيبه، وأنّ الحواس خادعة لا تؤتمن، فليس هناك ما بدا من الشك سواء في أحكام العقل أو في الآثار الحسية، فالشك هو الذي يقود إلى إثبات الوجود وبالتالي التدليل على وجود الله. ومن وجود الله أثبت ديكارت وجود العالم الخارجي ضاربا عرض الحائط مقولات الفلسفة الأفلاطونية القديمة، ومسلمات الفلسفة المدرسية للعصر الوسيط، فمن خلال فرضية أو بداية وضعها لنفسه، واعتبارها واضحة لذاتها وهو «أنه يفكر» .. انتهى إلى وجود عالم منظم منسجم تتحرك جزيئاته وفقا لقانون رياضي اعتبره مرادفا لفكرة الله عنده ... ومن هذه النظرة فإنّ العلوم كلها تعتمد على الحواس لأنها تستند إلى القياس إلا رياضيات «إقليدس» فهي فكرية استنتاجية محضّة .. وقد ظلت هذه الفكرة سائدة حتى القرن التاسع عشر الذي تغيرت خلاله النظرة إلى رياضيات اقليدس فاعتبرت الحقائق نسبية وليست مطلقة، وصنفت ضمن العلوم التجريبية.

بهذه الأفكار وضع ديكارت مع نهاية القرن السابع عشر قيودا للفن الكلاسيكي والنظرة الأدبية، فرفض سلسلة الفكر القديم، واتهم الشعر، ودفع بالأدب ومنه التاريخ إلى الدقة والصحة، وبذلك كانت الديكارتية عاملا لتطوير النظرة نحو التاريخ ومراجعة أحكامه. فالتاريخ حسب النظرة الديكارتية لا يسلم بالأحداث،

وإنما الشك هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحقيقة ما دام الشك هو سبيل اليقين، وإن كانت هذه النظرة قد أنقصت من قيمة المعرفة التاريخية في حد ذاتها إذ أصبح الفعل التاريخي يعتريه الشك مما دفع بالتاريخ إلى التوجه أكثر نحو طبيعة الشعوب وميول الجماعات باعتبارها مؤشرات تعكس المستوى الحضاري والعلمي، وهذا ما عبّر عنه «ديكارت» في القسم الأول من مقاله في المنهج بقوله: «فمن الخير أن نعرف شيئا من أخلاق الشعوب حتى نكون أسدّ رأيا في الحكم الذي ننتهي إليه، ولئلا نظن أن ما يخالف أحوالنا مدعاة للإستهزاء، ومناف للعقل كدأب الذين لم يروا شيئا ...».

ب - **فرانسيس بيكون** Francis Bacon (1561-1626م): دعا إلى المنهج التجريبي الذي طوّعه نيوتن وطبّقه في الرياضيات والطبيعيات، وقد تأثر في هذا التوجه بالفيزياء، وهذا عكس ديكارت الذي تأثر بالرياضيات، وسبينوزا الذي مال إلى اللاهوت، فقد وصف بيكون في كتابه «تقدم العلوم» The Advancement of Learning (1605) ما يعترض المعرفة من عوائق، وأخذ في كتابه «القانون الجديد» "Novum Oregann" (1620) بمناهج الدراسة العلمية، ودعا للاشتغال بالطبيعة متوقعا التقدم العلمي في التاريخ، وقد حاول عرض الأسباب المؤدية إلى وجود تأمل معقول في ظهور التقدم في قصيدة خيالية له بعنوان الأطلانطيس الجديدة New Atlantis (1623)، وقد خلص إلى القول في كتابه تاريخ هنري السابع (1622) وفي مشروع كتاب انكلترا العام إلى القول بأن النظرة إلى التاريخ منطلقها الذاكرة وأنّ عمل المؤرخ هو أن يستعيد الماضي أو يسجله مستعملا قواه العقلية التي تدفعه للتطور، وهذا ما عبر عنه بهذه الكلمات: «فبينما عقل الإنسان ينظر إلى الأسباب الثانوية المتناثرة، فإنه قد يرقد فيها بعض الأحيان، ثم لا يتقدم خطوة واحدة، ولكن حين يشهد سلسلتها مترابطة متحدة الحلقات بعضها ببعض لم يكن له بدّ من الطيران إلى الغاية ...».

يعتبر «بيكون» ممثل الاتجاه العقلي التجريبي المتأثر بالفيزياء والذي يجمع بين العلم والفلسفة، فقد رفض أسلوب القياس المنطقي المتبع على عهده، ووضع بدله منهجا قوامه الملاحظة والتجربة المستندة على تحرر العقل من الأوهام الناتجة عن الطبائع البشرية (الجنس) أو الحواس العضوية (الكهف) أو العلاقات الاجتماعية واللغوية (السوق) أو المعتقدات والتقاليد المتوارثة (المسرح)، فبالتحرر من هذه

الأوهام يمكن التوصل إلى الحقائق عن طريق الاستقصاء والاستقراء بجمع المعلومات، والبحث عن الحقائق ومقارنتها وتفسيرها عن طريق الملاحظة والأمثلة المماثلة والمناقضة.

جـ - **سبينوزا** Spinoza (1632-1677): أكد على العقل من خلال نظرة لاهوتية، وقد ذهب في كتابه المطوّل في اللاهوت والسياسة إلى تجاوز ثنائية «ديكارت» مؤكدا أن جوهرا واحدا (وهو الطبيعة) يشكل أساس كل الأشياء في العالم، وقال بأن الطبيعة تتطور وفقا لقوانينها وأنها علة ذاتها، وليست في حاجة لقوة فوق الطبيعة، وبذلك جانب بل نفى التفسير التقليدي للتاريخ حسب الكتاب المقدس.

د - **توماس هوبز** Thomas Hobbs (1588-1679): فصل بين العقل والعقيدة، ورأى أنّ فهم النتائج أو الظواهر الطبيعية يكون بالرجوع إلى أسبابها، وأنّ الغاية منها هي الاستفادة منها في حياتنا العملية لأنها تمكننا من التنبؤ بما سيحدث من نتائج، وبالتالي حصر اهتمامه في الأجسام المادية وعبّر عن تطلعات المجتمع القائم على تضارب المصالح، فاعتبر الدولة جهازا ضخما وكأنه التنين الجبار الذي يلتهم كل شيء وينفي حرية الرأي أو تصرف الضمير مادام الضمير الأناني هو مصلحته الخاصة التي على الدولة الحد منها لمعالجة الأثرة والجشع في المجتمع البرجوازي. وبذلك يكون هوبز إحدى دعاة التوجه العقلي التحليلي وأحد رواد النظرة العلمية إلى التاريخ.

هـ - **جون لوك** John Locke (1632-1704): تتدرج مساهمته في الفكر الأوربي في تدعيم التيار التحرري الليبرالي في الفكر والسياسة، فقد دعى لوك إلى الاعتدال وحث على الحكمة، متوجها أساسا إلى مجالات التعليم والفكر مستعملا المنهج التجريبي في ميادين المعرفة الإنسانية، فكان في مجال الفكر نظير نيوتن في مجال الطبيعيات.

لقد رأى لوك أن العقل البشري قاصر، لأن ما يدركه من أفكار سواء كانت بسيطة أو مركبة هو مستمد من التجارب والجزيئات، وأنه ليس من أفكارنا ما هو فطري وموروث، فالعقل عند ولادة الطفل يكون كالصفحة البيضاء، وأن التجارب تنتقل إلى العقل عن طريق الحواس وحدها، وبالتالي فمعلوماتنا مستمدة من الأجسام دون غيرها، الأمر الذي يتطلب توعية الفكر لمعرفة مشكلة المعرفة ودراسة

شؤون الإنسان من خلال تجارب الطبيعة التي هي المؤهلة –حسب رأيه– لأن تحلّ محل المفهوم الديني.

لقد رأى لوك أن التجارب تقوم أساسا على الارتياب في الطبيعة وإنكار الخوارق، وقد أدى به ذلك إلى تحديد طبيعة السلطة وعلاقتها بالفرد، فالسلطة الأساسية عنده هي من اختصاص ممثلي الشعب، وهذا ما دعا إلى المناداة بوجوب منح الإنسان حرية تامة في اختيار الطريقة التي يراها أصلح لنجاحه في الآخرة، الأمر الذي أحدث ثورة حقيقية في مجال الفكر الديني في انكلترا، وأدى إلى إيضاح الرؤية لمسألة السلطة في المجتمع الانكليزي، فالفرد عند «لوك» يتنازل عن بعض حريته واستقلاله للدولة وذلك حتى يتمكن من حماية شخصه وأملاكه من عبث العابثين، وبالتالي فإنّ مهمة الحكومة هي حماية الملكية الفردية بما فيها حماية الجسم والأفكار، ومن هذه النظرة فإنه لا يحق للدولة مادامت الغاية الأولى لها هي صيانة الملكية أن تحرم الفرد من حريته إلا بموافقته، وقد عبر عن ذلك بقوله: «إنه مادام الناس بطبيعتهم سواسية أحرارا، مستقلا بعضهم عن بعض، فلا يجوز أن يحد أحد من حالتهم الطبيعية ليخضعهم لقوة سياسية يملكها شخص آخر من غير إرادتهم».

لقد كانت نظرة جون لوك للحكومة المدنية وآراؤه في التربية وخطاباته في التسامح، ومقالته في العقل البشري تقوم على المنهج التجريبي التحليلي، فهو قد سبق روسو في القول بأن الدولة أساس تعاقد اجتماعي بين الأفراد، فالحكومة عنده شر، ولكنه أهون شرا من تعرض الجسم وسائر الممتلكات المادية للنصب والتخريب، فحسب تعبيره «أن الإنسان لا يدخل عضوا في المجتمع الخاضع للدولة بسبب كونه اجتماعيا بالطبع والضرورة، بل يدخل عضوا باعتباره يصون حقوقه».

لقد مهد لوك لمونتسكيو فيما يخص فصل السلطات، فهو يفسر أنّ السلطات متعددة، فهي تشريعية وتنفيذية (ادارية وقضائية) وتعاهدية (فدرالية)، مما ينتج عنها الحدّ من سلطة الملك، فهو بذلك ينكر في مقاله في العقل البشري على أنصار الأسرة المالكة القديمة بانكلترا (ستوارت) اتهامهم للأسرة الجديدة (هانوفر) باغتصاب العرش (1713)، فلم يسلم بأن الملكية نظام مقدس إلهي لا يجوز معه خلع الملك ولا مهاجمته، بل يرى أنّ الدولة في أساسها هي عقد أو اتفاق بين الأفراد لحماية متاعهم وأملاكهم كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فالمرجع إذا –

والحالة هذه – هو الشعب وحده ووسيلة التعبير هي الأغلبية، مما أحدث ثورة في الفكر الأوربي ومهد للموسوعيين بفرنسا أن يطرحوا أفكارهم بجرأة مما يؤدي لاحقا في أوربا إلى تقويض أركان الملكية المطلقة والتصرف الفردي في شؤون الأمم والشعوب ...

***

تميزت المدرسة التاريخية العقلية الأوربية في القرن الثامن عشر بخصائص جعلتها تتصف بالنزعة الواقعية وتميل إلى التوجه النقدي فمن هذه الخصائص:

1 - **كانت ردّ فعل عن النزعة التحليلية ذات البعد الإنساني الذي مثله مكيافيلي** أو الطابع الديني الذي أبرزه بوسويه، فالنزعة التحليلية والميول الدينية لا تأخذ بعين الإعتبار واقع المجتمع ولا تهتم بالتطورات التي عرفتها أوربا، والتي كانت تندرج في سياق التقدم من خلال الفعل الإنساني، فجاءت المدرسة العقلية في القرن الثامن عشر لتعيد الاعتبار لهذا الواقع ولتدعيم ثقة الإنسان في المستقبل، وتصرفه عن التشبث بالماضي، فهي تندرج ضمن التيار العام والمفهوم الشامل الذي يرى أن الإنسان قادر على تحقيق الإنجازات التي تمكنه من أن يستبدل «بالفردوس الديني الأخروي فردوسا علمانيا دنيويا» .. وبذلك أصبح التاريخ من خلال توجه هذه المدرسة العقلية ليس تأملا في الماضي، وإنما هو تعبير عن حاجات المجتمع الأوربي وانعكاس لمتطلبات الثقافة الغربية ومواكبة للتطور الاجتماعي والاقتصادي والفكري لأوربا، وهذا ما عبرت عنه الأدبيات التاريخية لهذه المدرسة: روح الشرائع لمونتيسكيو ورسائل فلسفية لفولتير وأفكار فلسفية لديدرو ولوحة لتقدم النفس الإنسانية لكوندورسي.

2 - **حاولت المدرسة التاريخية ذات التوجه العقلي إنزال التاريخ من الاهتمام بالأفراد والاعتناء بالحكام والاشادة بالأبطال إلى معالجة الانجازات الحضارية للإنسان في التاريخ**، فالتاريخ أصبح أداة تندرج في الجهد الرامي لتحرير الإنسان من كل قيد قد يحد من فكره أو تصرفاته، ووسيلة لتقويض دعائم المجتمع الأرستقراطي القديم المحافظ، ولمحاربة جهالات الكنيسة وتعصبها، فالتاريخ بهذه النظرة هو من صنع الحضارات وليس من انجاز الأفراد، فمحطاته الرئيسية هي عصر النهضة، والكشوف الجغرافية، والثورة الصناعية، وعصر التنوير، وصناعه

فلاسفة وعلماء ومفكرون أمثال ليوناردو دافنسي وميخائيل أنج ودانتي وكلومبوس وأمريكوس وكبلر ونيوتن وديكارت وفولتير وكانت، فبهذا الإعتبار الذي حملته المدرسة التاريخية العقلية يصبح التاريخ الحق هو تاريخ الفكر الذي يكشف عن تقدم العقل البشري من خلال مظاهر النشاط المبدع، ومثار الإهتمام فيه هو موضوعات العلم والإكتشافات وإماطة اللثام عن تقدم الجنس البشري الذي هو حقيقة الحضارة ومحور وحدة دراسة التاريخ حسب هذه المدرسة التاريخية.

3 - **وسعت هذه المدرسة التاريخية العقلية أفق دراسة التاريخ** فأصبح يمثل ماضي البشرية من حيث نوعية النشاط الإنساني والمجال الجغرافي، فالتاريخ أصبح منصبا على تطور الأنظمة السياسية نحو الديمقراطية المتمثلة في تحقيق الحرية والعدالة والمساواة، فتوسعت آفاق الدراسات التاريخية، ولم تعد فقط تهتم بالتطور السوسيولوجي أو المذهبي وإنما أصبحت الأحداث تعرض من خلال فكرة جديدة يخضع معها كل شيء إلى الفحص، وهذا ما سمح للتاريخ أن يتخلص من أخطاء كثيرة وآراء وأحكام مسبقة عن ماضي اليونان والرومان والعبرانيين وغيرهم ... بل أدت في بعض الأحيان إلى تجديد النظرة للتاريخ القديم وإلى الدعوة لتحطيم الروحانية الزائفة والخرافات الشائعة التي كرسها مؤرخو العصر الوسيط وباركها رجال الكهنوت وشجعها النظام الإقطاعي .. وقد أدى هذا المنحى بالمدرسة التاريخية إلى مواقف فيها شيء من التطرف في النظرة مما جعلها تصطدم في فهمها للماضي وفي محاولة تطبيق الثقافة العلمانية في كلّ الميادين بمفهوم الدين والعقيدة المسيحية، فقد رأى مؤرخو هذه المدرسة العقلية في الكنيسة قيدا للنشاط الإنساني، وتحديدا لمجال الفكر، وكابحا للمنطق الديكارتي الذي يستبعد من التاريخ كلّ الشواهد القائمة على أساس العقيدة وحدها.

4 - **غلبت على المدرسة التاريخية العقلية الأفكار الفلسفية**، فارتبط التاريخ بالفلسفة وأصبح خاضعا للإهتمامات الاجتماعية، وبذلك أصبح التاريخ أقرب إلى الفلسفة منه إلى التاريخ بالمعنى المتعارف عليه، وقد تدعم هذا التوجه مع كتابات مونتيسكيو ليصبح الطابع العام للمشتغلين بالتاريخ، وقد تأكد ذلك مع فولتير، فأصبح بذلك التاريخ صورة فكرية للحضارة ولوحة لنشاط الفكر الإنساني، ومؤشر لإنتصار العقل وتحرر الفكر في سياق التقدم البشري المادي الذي تعكسه المظاهر الملموسة في حياة الإنسان الأوربي، وهذا ما أدى إلى اهمال نظرية التعاقب

الدوري أو فكرة تراجع الحضارات ... وإن لم يستطع مؤرخو هذه المدرسة اعتبار فكرة التقدم ذات قيمة مطلقة مادام هناك عهود تدهور فيها الفكر الإنساني مثل العصر الوسيط الأوربي مثلا، كما لم يستطيعوا إغفال ميول غالبية الناس عبر العصور، وهي ميول غالبا ما تبحث عن الذات سعيا في الخلاص وليس التطلع فقط من أجل التقدم، كما لم يتمكنوا من اغفال عوامل بيئية واقتصادية وتاريخية، فضلا على أن التقدم في حد ذاته وإن قضى على بعض الشروط والعوائق إلا أنه قد استبدل بها شروطا أخرى ليست أقل خطورة من تلك التي قضى عليها، زيادة عن ذلك أن نظرة التقدم لم تنجح في إزالة موجه التشاؤم وإعادة التفاؤل لدى الإنسان العادي أو في وسط المجتمعات الأوربية البسيطة.

***

بفعل تلك الشروط المساعدة والأفكار المستجدة التي تشكل ميزات وخصائص المنحى الذي سار فيه مؤرخو المدرسة العقلية، أمكن للكتابات التاريخية أن تحدث ثورة شاملة في مجال التاريخ من حيث المفهوم والأسلوب والمنهج مما غير النظرة إلى أحداث التاريخ، وجدد الحكم على خباياه، وهذا ما يعكسه الانتاج التاريخي لهذه المدرسة طيلة القرن الثامن عشر والذي يتشكل أساسا من مساهمة الموسوعيين (الانسكلوبيديين) الفرنسيين الذين وإن اختلافت انتماءاتهم وتباينت مذاهبهم إلا أنهم يجتمعون على العمل لتقويض المجتمع الأرستقراطي الفاسد عن طريق تنوير العقول وتصفيتها من الخزعبلات التي وضعها حسب رأيهم رجال الكنيسة، وتدريب الناس على المنهج العلمي في التفكير والمعرفة من خلال مواد الموسوعة التي انتسبوا إليها ونشروا أفكارهم من خلالها.

صدرت أعمال الموسوعة ما بين (1751-1772) في ثلاثين مجلدا ظهرت الأجزاء الخمسة عشر الأولى (1751-1756) ثم استكملت لوحاتها (1772) تنفيذا للاتفاق مع الناشر صاحب مكتبة بروتون Le Breton وقد كان المحرر الرئيسي للموسوعة ديدرو ومتولي القسم اللاهوتي منها لابي مالي L'Abbé Mallet والأب دالمبار d'Alambert (1717-1783) صاحب المقالة الأولية Discours préliminaire ومقتطفات فلسفية حول التاريخ والأدب Mélanges de philosophie de l'histoire et de la littérature يضاف لهم هولباخ وهولفتيوس وكوندياك.

ومن خلال مضمون مقالاتها يمكن التعرف على التطور الذي حققه التاريخ في إطار هذه المدرسة العقلية التي غلب عليها التحليل الفلسفي والنظرة النقدية ونزعة الشك والتساؤل عن قيمة الماضي والثقة والأمل بالمستقبل. وحتى يكون القارئ صورة متكاملة عن انتاج هذه المدرسة فسوف نستعرض ما كتبه كل من مونتيسكيو وفولتير وديدرو وكوندرسي، باعتبارهم نماذج مميزة لهذه المدرسة التي طبعت القرن الثامن عشر بأوربا من حيث المفهوم والطريقة.

1 - مونتيسكيو (1689-1755): ولد بشاطو دولابريد (Chateau de la Brède) جنوب بوردو (Bordeaux) سنة 1689، من أسرة نبيلة، وتعلم بالمدارس المتحررة، ومارس المحاماة بباريس، واختلف إلى المنتديات الأدبية والعلمية (1721-1728م)، وفي مقدمتها صالون مادام دولامبير De Lambert ومدام دوتونين De Tenein، وفي فترة متأخرة صالون مادام دوفون Duffond، وتعرف على العديد من البلدان الأوربية مثل ألمانيا والنمسا والمجر والدويلات الإيطالية وهولندا وانكلترا (1728-1731)، وتأثر بفيكو واعتبره أعظم من كتب في التاريخ ومال في دراسته إلى الإهتمام بالعلوم والرياضيات فعرفت أفكاره واشتهر أمره وأصبح عضوا في أكاديمية بولاز (1761).

امتاز مونتيسكيو ببلاغة الأسلوب وعمق الفكرة وصحة الحكم والبحث عن الحقيقة، فهو يقول في روح الشرائع بأنه يتبع غرضه دون تخطيط أو وضع قواعد أو استثناءات ما دام أنه يجد الحقيقة ليفقدها: "Je suivrais mon objet sans former de dessins, je connaissais ni les règles, ni les exceptions, je trouve la vérité que pour la perdre".

ألف العديد من الكتب والدراسات أهمها:

1 - رسائل فارسية Lettres persanes (1731)، نقد فيها أوضاع فرنسا على لسان فارسيين زائرين لها، دون أن يغفل نقد الأنظمة الفارسية مما جعله دراسة مقارنة للعادات بين المجتمعين الشرقي والغربي.

2 - ملاحظات عن أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم:
"Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence 1734".

3 - روح الشرائع L'Esprit des lois وضعه في أربع عشرة سنة (1734-1748) ونشرة سنة 1750، ورغم محاولات منع نشره إلا أنه طبع اثنين وعشرين طبعة في مدة عامين فقط.

استخدم مونتيسكيو في روح الشرائع المنهج التاريخي المقارن في عرض أفكاره واثبات نتائجه، مما جعله بحق رائد فلسفة الحضارة في العصر الحديث، ففي عرضه للصلة التي يجب أن تربط القوانين بنظام الحكم في كلّ أمة، قارن بين طبيعة الحكم في كل من فرنسا وانكلترا دون أن يسلم بإمكانية اقتباس النظام الإنكليزي وتطبيقه في فرنسا حرفيا.

ترتكز أفكار مونتيسكيو في النظر للتاريخ على بعض التوجيهات الفكرية منها:

1 - **أنه ميّز بين مختلف أنظمة الحكم**: الإستبدادية والأرستقراطية والديمقراطية، فالدولة في نظره يجب أن تقوم على أسس عقلية، بحيث لا يجب أن تتحول مؤسساتها إلى أدوات عمياء في يد الإستبداد، ولتحقيق ذلك يجب أن يفصل بين السلطات الثلاث الرئيسية في الدولة، لأنه حسب قوله لا تكون الحرية مطلقا إذا ما اجتمعت السلطة التنفيذية في شخص واحدا وفي هيئة حاكمة واحدة، وكذلك لا توجد الحرية إذا لم تفصل سلطة القضاء عن السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية، وهذا ما جعله ينادي بالفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية فصلا تاما(La séparation du pouvoir) لأن ذلك يجعل الدولة تؤدي مهمتها وهي المحافظة على النظام دون أن يكون ذلك مرتبطا بالتعسّف والإستبداد (L'ordre soit respecté sans jamais prendre l'aspect d'une tyranie ou d'une dictature) ومن هذا المنطلق هاجم الأنظمة الإستبدادية واتهمها بالتجرّد من الشرف والفضيلة.

2 - **أنّه نسب مخاطر تصرف وميول الطبقة الحاكمة إلى البطانة والحاشية المنتفعة بالحكم**، فهو يصفها في روح الشرائع بقوله: «تتألف أخلاق معظم البطانات في كل زمان ومكان من الطموح في كنف البطالة والضعة المتسترة وراء الكبرياء والرغبة في الثراء دون عناء والتملك والخيانة والمؤمرات والتخلي عن الوعود وازدراء واجبات الوطن والفزغ إن كان الأمير فاضلا، والتمني أن يكون ضعيفا مع الإستهزاء الدائم من الفضيلة ومعتنقيها .. أنه من المزعج حقا أن أكثر أكابر الدولة فاقدو الأمانة بينما أصاغرها هم أهل الصلاح ..».

3 - أنه حاول عرض العوامل المؤثرة في نظام الحكم والأسباب التي تشكل قوانين الدولة، وتؤثر على شكل الحكومات وشخصية الأمم، وأرجعها إلى العوامل الجغرافية التي تتمثل في شروط البيئة، فالمزاج الإنساني ونوعية الأخلاق والعادات والطبائع يعود إلى تأثير المناخ وطبيعة الأرض ونوعية التربة والموقع، كما أرجع نظام الحكم وطبيعة قوانين الدولة إلى العوامل المعنوية أو الإجتماعية التي تتصل بالأمور الدينية والمسائل الاقتصادية، فحسب مونتيسكيو أنّ هذه العوامل رغم أهميتها وفاعليتها إلا أنها لا يمكن لها أن تجعل المجتمع جامدا أو غير قابل للتطور، فرغم الأثر الحاسم للشروط الجغرافية التي تتصف بالثبات والإستمرار، ومع كون الأوضاع الثقافية والاجتماعية تميل بطبيعتها إلى المحافظة، إلا أن التغيرات التاريخية تحدّ من ذلك لأنها تعود لشيء واحد مستمر وهو فعل الطبيعة البشرية في ردها على المؤثرات المختلفة، مما يؤدي إلى تطوّر ذهنية وبنية المجتمع، وبذلك تطرق مونتيسكيو إلى شيئين كانا محرمين من قبله في مجال الفكر السياسي والنظرة التاريخية لمثقفي السلطة، وهما المسيحية (Le Christianisme) والملكية (Le Royauté).

بهذه الأفكار عبر مونتيسكيو عن تطلعات التيار الأرستقراطي المحافظ الذي ينتمي إليه اجتماعيا، فهو يرى أن طبقة النبلاء هي الدعامة الأساسية للملكية إذ لا توجد ملكية بدون نبلاء ولا نبلاء بدون ملكية، فهو يقول في هذا الصدد: «ألغوا في النظام الملكي حقوق السادة الإقطاعيين وامتيازات رجال الدين والنبلاء فإنكم تجدون أنفسكم أمام دولة غوغائية أو دولة مستقلة ..».

إن مونتيسكيو – مع احترامه لبناء المجتمع التقليدي – يثور ضد الإستبداد الملكي وينادي بمنح الأرستقراطية مشاركة فعالة في تسيير أمور المملكة دون أن يصل في ذلك حد الثورة، وحجته في ذلك أن التجارب الأزلية برهنت على أن كل إنسان ذي سلطان يميل إلى إساءة استعماله، وهو يتوسل في ذلك بحجج حتى لا يلاقي حدودا، كما أن كرهه للتعصب الديني دفعه إلى الإنكار، بل الكفر بالقيم المسيحية، فالحرية عنده هي أساس المناعة الحضارية ومصدر قوة الأمم وأساس النظام، وهذا ما عبر عنه في روح الشرائع بقوله: «إن أوربا لديها عبقرية (الحرية) التي تجعل كل جزء من أجزائها عسير الإخضاع والإذعان لقوة أجنبية».

4 - إن مونتيسكيو بوصفه مؤرخا لم يبال بالنقد إطلاقا حسب قول كولنجوود، وبإصراره على العلاقة بين الإنسان وبيئته وتأكيده على العوامل الإقتصادية لتأثيرها على الأوضاع السياسية، فإنه ساهم في إثراء وتطور التفكير التاريخي في المستقبل، إلا أنه أخطأ التقدير في الحكم على الطبيعة الإنسانية، والجهد البشري، وجانب الصواب في تقييم خصائص المدنيات السابقة، لأنها وإن كان للطبقية تأثير فيها، فإن للجهد البشري أثره الفعال في تطورها وتوجيهها، وهذا ما يسمح لنا بالقول: بأن مونتيسكيو قد أخطأ في فهم طبيعة الفوارق بين الأمم المختلفة الثقافات عندما أصرّ على أن تفسير الأحداث التاريخية يأتي استنادا إلى خصائص الكون المادي، فالمخترعات ناتجة لأسباب طبيعية، والمواقف تعود لتباين شروط المناخ والتضاريس، وبالتالي يصبح التاريخ البشري من وجهة نظر مونتيسكيو صنفا من التاريخ الطبيعي، لأنه جزء من الطبيعة، فتكون الحياة الإنسانية أشبه شيء بحياة النباتات لأن التغيرات التاريخية والحالة هذه، ما هي إلا صور وأشكال لشيء واحد لا يتغير وهو الطبيعة الإنسانية في استجابتها لمختلف المؤثرات الجغرافية، وهذا ما يحد من فهمنا لماضي الشعوب إذا أخذنا بنظرة مونتيسكيو إلى مسار التاريخ.

ب – فولتير (1694-1778): ولد فولتير (François Marie Arouet de Voltaire) بباريس من أسرة ميسورة الحال وتعلم بالمدارس الدينية ودرس القانون، ومال إلى قراءة الأدب وعرف بأسلوبه الساخر وأفكاره التحررية، فاضطر إلى الإقامة فترة بهولندا (1713)، وأدت به أفكاره الجريئة إلى سجن الباستيل سنة 1717، بعدها عرف بلقب فولتير الذي ظل يعرف به، وتحول إلى اللورين وتردد على منتدى مادام دي شاتليه (Madame de Chatelet) ثم أقام ثلاث سنوات بانكلترا (1726-1729)، فاطلع عن كثب على الثقافة والفكر الإنكليزي، وبعد عودته إلى فرنسا نشر كتابه «رسائل فلسفية» Lettres philosophiques (1734)، ووضع رسائل عن الأمة الانكليزية (1737)، مبديا إعجابه بالديمقراطية وتقديره لنيوتن، فاشتهر أمره وعرف في الأوساط المثقفة بأوربا.

عيّن «فولتير» عضوا بالأكاديمية الفرنسية (1746) ورحل إلى بروسيا بعد موت مادام دي شاتليه (1749) لكنه اختلف مع عاهلها فريدريك الثاني فتحوّل إلى سويسرا حيث أقام بالقرب من «جنيف» (فرناي) (1755)، ومن هناك شنّ حملة

على الكنيسة لاضطهادها البروتستانت واتهمها بالتحالف مع الدولة ضد الحريات، فاعتبر المدافع الأول عن الإنسانية، وحظي باستقبال رائع عندما قدم باريس (1778) حيث وافته المنية في نفس السنة.

ترك فولتير العديد من الكتب التي تعالج القضايا التاريخية والمسائل الفلسفية وهي حسب سنوات ظهورها:

1731 - من عهد شارلمان إلى لويس الرابع عشر De Charlemagne à Louis XIV.

1731 - حوليات.

1731 - تاريخ شارل الثاني عشر مالك السويد (Histoire de Charles XII).

1734 - رسائل فلسفية (Lettres philosophiques).

1751 - عصر لويس الرابع عشر (Le Siècle de Louis XIV).

1737 - رسائل عن الأمة الانكليزية (Les lettres anglaises).

1739 - رواية ميكروميغا (Micromégas).

1744 - اعتبارات جديدة حول التاريخ (Nouvelle considérations sur l'histoire).

1747 - زاديق (Zadig).

1756 - شعر حول فاجعة لشبونة (Poème sur le désastre de Lisbonne).

1756 - بحث حول المغاربة.

1756 - مقالة في الأدب (محاولة في الثقافة).

1757 - حوليات تاريخ روسيا تحت حكم بطرس الأكبر.

1759 - كانديد(candide).

1757 - مقال في عادات وروح الأمم من شرلمان إلى لويس الرابع عشر (Essai sur les moeurs et l'esprit des nations de Charlemagne à Louis XIV).

1763 - مقالة في التسامح (Traité sur la tolérance).

1764 - قاموس فلسفي (Dictionnaire philosophique).

1767 - الساذج (L'Ingénu).

1765 - فلسفة التاريخ (La philosophie de l'histoire).

1776 - نشأة المسيحية.

يبرز الجانب التاريخي لدى فولتير في كتابيه: عصر لويس الرابع عشر وتاريخ شارل الثاني عشر ملك السويد، وهذا ما دفعنا إلى التعرض لهما بشيء من التفعيل بهدف التعريف بالفكر التاريخي لدى فولتير.

1 - **عصر لويس الرابع عشر**: بدأه فولتير عام 1732 ونشره سنة 1751، وقد اعتمد فيه على كثير من الوثائق، وحاول عرض التاريخ من خلال تحليل حياة الأشخاص، مما أعطى له قيمة تاريخية حقيقية، قسمه فولتير إلى 39 فصلا، لم يتقيّد في عرضها بالترتيب الزمني، فقد تناول التاريخ الفكري والدبلوماسي في الفصول الأولى (من الفصل 1 إلى 24) وتعرض إلى أحداث متفرقة وقضايا خاصة وحكايات متنوعة كلها تتصل بحياة لويس الرابع عشر وشؤون القصر والحاشية وصفات وطبائع الملك في الفصول التالية (الفصول 25 إلى 28)، بعدها تناول الحكومة الداخلية والآداب والفنون الجميلة، ومظاهر عظمة عصر لويس الرابع عشر، وما تميّز به من استبداد مستنير في الفصول ما قبل الأخيرة (29 إلى 34)، وفي نهاية الكتاب (الفصول 35 - 39) تناول قضايا الكنيسة وشؤون الطوائف الدينية، من كلفينية وجانسية وغيرها ...

من خلال هذا المنهج الذي اتبعه فولتير حاول أن يظهر نقمته على مفهوم التاريخ السائد، وهو التكريس الزمني للأسماء والتواريخ، وهذا ما عبر عنه صراحة بقوله: لم أكن قادرا على إنهاء قراءة أي تاريخ طويل لأممنا الحديثة، لأنه لا يمكنني أن أرى فيه شيئا سوى الإضطراب ومجموعة الأحداث الصغيرة دون رابطة أو نتيجة، وآلاف المعارك التي لا تكسب شيئا، فانكففت عن هذه الدراسة التي تغرق الفكر دون أن تضيئه.

تناول فولتير «الأحداث التاريخية بشيء من النقد غير المباشر، وإن كان هادفا ومؤثرا، فقد أظهر عظمة لويس الرابع عشر (ملك الشمس) لكنه لم يخف سخريته من بعض مظاهرها، وقد اعتبر هذا العصر المستنير والمتميز بالإستبداد مرحلة مهمة في تقدم الحضارة، فقد شجع على التقدم وساعد على الرقي، وهذا ما أكسب فولتير في عرضه لأحداث عصر لويس الرابع عشر نظرة متفحصة إلى عناصر قوة وضعف فرنسا على عهد لويس الرابع عشر، وذلك عشية انبثاق عصر الفلاسفة الذين سوف يوفرون حسب رأي فولتير، سعادة البشر.

2 - تاريخ شارل الثاني عشر ملك السويد (1718-1684) (L'histoire de Charles XII Roi de la Suède) نشره فولتير عام 1731، وتناول فيه حياة هذا العاهل المتميزة بالإضطراب والمغامرة مما يجعلها ميدانيا خصبا لاستخلاص العبر والدروس، فاستعرض فولتير في الأبواب الأولى من (1 إلى 4) صعود نجم شارل الثاني عشر وتغلبه على الدانويين (الدانماركيين) والروس وسيادته على بولونيا، وتوسعه بأوكرانيا وانهزامه على يد بطرس الأكبر في معركة بولتافا Pultava (1709) واضطراره إلى اللجوء إلى تركيا، وفي الأبواب الأخيرة (5 إلى 8) تناول نهاية هذا الملك الشجاع والمغامر منذ التجائه إلى تركيا إلى موته فتعرض بالتفصيل إلى كفاح هذا الملك الطريد من أجل الرجوع إلى السويد ومحاولته غزو النرويج من جديد قبل أن يلقي حتفه في ساحة المعركة.

أراد فولتير من خلال كتابه حول شارل الثاني عشر ملك السويد تحويل اهتمام الحكام من جنون الغزو ونشرة الأنصار إلى التعقل والحكمة، وقد أظهر أن الحكومة المسالمة والسعيدة هي فوق اعتبار أي مجد أو عظمة، (Combien un gouvernement pacifique et heureux est au-dessus de toute gloire) وبالتالي فإن الذين يخلدون في ذاكرة الإنسانية هم الذين يقدمون لها شيئا مفيدا لا الذين لا يعرف عنهم عمل مفيد في السلم والحرب.

تميزت أفكار «فولتير» بصفات عكست توجهاته الفلسفية وآراءه التاريخية ونظرته للحياة، وكان لها تأثير على تطوّر الكتابة التاريخية في القرن الثامن عشر، من أهم هذه الصفات التي طبعت فكر فولتير:

1 - **دعا فولتير إلى التسامح والإخاء والحرية وإلى الإيمان بفضيلة العقل التي اعتبرها الدليل الأول على إنسانية الإنسان**، وقد رجع في ذلك إلى القانون الطبيعي أو الحق الطبيعي الذي هو مصدر فكرته عن العدالة والخير، فالفضيلة اعتبرها ضرورية مادام الإنسان مجبولا على الضعف والخطأ، فنادى بأن يعفو كل منا عن حماقة أخيه، كما أن التسامح الذي دعا إليه رأى أن أسسه تعود إلى القانون الطبيعي أي تستخلص من المبادئ التي تعلمها للإنسان، وهذا ما جعله يرى أنّ الإصلاح أساسه التآخي وصيانة الحريات، فرفض استرقاق العبيد وامتيازات النبلاء، وحمل الكنيسة ورجال الدين القائمين عليها مسؤولية التعصب الأعمى والآثار الناجمة عنه، يدفعه إلى ذلك اعتقاده بأن التطور سوف يؤدي إلى مجتمع سعيد تسوده الأفكار التحررية.

2 - عرض فولتير أفكاره من خلال النقد اللاذع والتهكم الساخر، وذلك بهدف محاربة الخرافات، فالتاريخ عنده فلسفة تعلم بالتجربة وهو قبل كل شيء رواية للحوادث المعبّرة عن الحقيقة من خلال الوثائق بهدف كشف أخطاء الماضي، فالتاريخ الحقيقي هو نقيض للخرافات التي تروى حوادثها باعتبارها حقائق زائفه، دون أن ينتقض في ذلك من قيمة العادات وأهمية التقاليد لكونها تعكس عقليات الشعوب والأمم، فهو يقول في هذا الصدد: «أريد أن أتعرف إلى المجتمع الإنساني في عصر من العصور وإلى حياة الأسرة داخل المنزل، وإلى الفنون التي مارسها الناس، بدلا من الإطلاع على سلسلة الفواجع والحروب التي يكرر المؤرخون تناولها جاعلين من كتب التاريخ معرضا دائما لشراسة الإنسان» هذا دون أن يغفل فولتير إمكانية تطوّر هذه العادات أو اختفائها باستعمال العقل والفكر، فهو يعبر عن هشاشة بعض العادات المنافية للعقل عندما قضى بطل قصته زاديڤ (Zadig) في يوم واحد من عادة ظلت متحكمة لعدة قرون، فحسب قوله: (On eut au seul Zadig l'obligation d'avoir détruit en un jour une coutume si cruelle que durait depuis tant de siècles).

3 - عارض فولتير مفهوم العناية الإلهية عقليا، كأساس لتحديد مسار التاريخ، فدخل في جدال عنيف ضد الاكليروس الذين رأى فيهم تكريسا لتراجع الحياة البشرية ومظهرا من مظاهر الشعوذة والتسلط، فلم يسلم فولتير بالرأي القائل بأنّ إرادة الله امتحان للإنسان بين الخير والشر، وقد أخذ على ذلك المؤرخين الذين انطوت نظرتهم إلى التاريخ على التسليم بالعناية الإلهية مثل باسكال الذي أخذ بفكرة ربط الإنسان بعقدة الخطيئة الأصلية، متجاهلا قدرة الطبيعة البشرية في التأثير على الانسان، مما يحول دون تقدم البشر ويحط من شأن الحضارة ويغرق الإنسانية في رهبانية لا مبرر لها. وهذا ما يلقي ضلا قاتما على حياة الإنسان على الأرض، ويختصر هدف الحياة في الاعداد للموت، وبالتالي الحيلولة دون تقدم البشرية.

يرى فولتير أن الله قد خلق العالم وفق قوانين ثابتة لا علاقة لها بأفعال الإنسان خيرا أم شرا، وأن الله منح الإنسان العقل ليحسن استخدامه من أجل سعادته وسعادة الآخرين، وذهب إلى حد القول بأن «الحياة في باريس ولندن وروما هي أفضل من جنة عدن» كما عبر عن تحديه لمواقف رجال الدين المسيحيين

من التاريخ عندما قال: «كم أكون سعيدا بتحقيق غايتين: كشف الحقيقة وإحراج من يأخذون التاريخ بنظرة لاهوتية»، وكان دافعه في ذلك أنّ التاريخ عكس ما يذهب إليه اللاهوتيون القائلون بأنه يسير وفقا لمفهوم العناية الإلهية، فهو في الواقع حسب رأي فولتير يخضع لمقتضى العقل البشري ويتجه نحو الأفضل والأحسن، دون أن يستبعد دور الصدفة في التاريخ فهو يقول: «إذ هناك أحداثا جساما نتجت عن أسباب بسيطة، وأنّ مطامح وأغراض الرجال العظماء كثيرا ما ساهمت في تقدم الحضارة عن طريق الصدفة، مثل ما هو الشأن مع لويس الرابع عشر»، ولهذا يجب حسب قول فولتير أخذ هذه الأسباب في الإعتبار وعدم إهمال الإختلاف في الحالات وفي الأشخاص لأنها تتحكم إلى حدّ كبير في نوعية الحكم على الشخص والرؤية للأحداث، فهو يقول: «أنّ الناس يختلفون من حيث الأوضاع والميول والمعتقدات، وحتى نفس الأمة لن تحافظ على نفس الأفكار حول نفس الحادث والشخص بعد انقضاء عشرين سنة» (Les hommes différent entre eux, d'état, de parti, de religion ... La même nation, au bout de vingt ans, n'a plus les mêmes idées qu'elle avait sur les événements et la mêmes personne)

وبهذا الموقف رأى فولتير أن الفكر الكنسي غير كاف وغير مقنع وغير منطقي لتعارضه مع حرية العقل ولكونه يحط من قيمة الإنسان ولذا وجب أن يترك مكانه لفكر جديد متفائل يقدس العقل الذي ليس له حدود ويحترم الإنسان الخير بطبعه...

4 - **اتخذ فولتير موقفا معاديا ضد الأحكام والأفكار الشائعة في التاريخ**، فقد نادى فولتير بنقد المؤرخين السابقين الذين تميزوا بضيق الأفق والنظرة المحدودة للأحداث، وهذا ما دفعه إلى عدم التسليم بأهمية تاريخ الشعب العبراني على حساب تاريخ الشعوب الأخرى التي تفوقه قوة وانجازات حضارية ... فانتقد قصص العهد القديم «التوراة» ولم ير قيمة للتاريخ المستند إليها، فالحكايات الواردة فيه هي محل شك من الناحية التاريخية لأنها تتجاهل شعوب الشرق القديم ذات الحضارة العريقة وتوجه عناية مبالغا فيها إلى العبرانين كما لو كانت تلك الحضارات لا قيمة لها إلا من حيث علاقاتها باليهود، هؤلاء الذين قد يكون لهم مكانة في اللاهوت، أما في التاريخ فليس لهم إلا مكان وضيع، ولهذا السبب انتقد

بوسويه لتركيزه على تاريخ بني إسرائيل، بقوله: «أن الأمة اليهودية الصغيرة أصبحت موضوعا وهدفا وأساسا لكل مؤرخينا، يعتقدون أنهم يضعون تاريخا شاملا، وفي الواقع أن هذه الأمة ما هي إلا نقطة في التاريخ العالمي، فماذا عن الكلدانيين والهند والصين التي لا نذكرها أصلا في مؤلفاتنا الشاملة؟ والتي صنعناها في غربنا، لقد وجدت قبلها أمم ..» وقد أدى به هذا الموقف إلى وصف الشعب العبراني بعبارات جارحة فهو يقول: «إنّ هذا الشعب اللئيم، المخرف الجاهل العاطل عن الإبداع الفكري كان يزدري أكثر الأمم حضارة، أنهم أحقر شعوب الأرض، ممقوتون مخرفون، همجيون، منحطون في الفقر، وقحون في الغنى .. فهل شمل الله هذا الشعب الوضيع – كما تقول التوراة – ليكون شعب الله المختار، أو ليكونوا مخلصي الجنس البشري؟» وفي هذا السياق حاول فولتير إنصاف العرب والمسلمين واعترف بفضلهم في نقل الحضارة إلى أوربا في بحثه حول المغاربة (1756).

5 - **أمن فولتير بالتقدم والرقي والتطور**، فقد رأى أن التاريخ يقدم لنا عرضا واضحا عن ذلك، ولهذا رأى بأن المؤرخ وحده يجب أن يكتب التاريخ لأن أحداث التاريخ تؤدي إلى خلق مجتمع متنور (علماني وعقلاني وإنساني) وتطوره يجعل المجتمعات البشرية تتحرك من ظلام الخرافات إلى النور المتزايد للعقل، فقد اعتبر أن أزهى الفترات في تاريخ أوربا هي العصور التي كان فيها التطور التاريخي في خدمة الروح الإنسانية، وهي: العهد الإغريقي والروماني وعصر النهضة، ثم حركة التنوير التي تميزت عصره (القرن الثامن عشر) والذي اعتبره أكثر العصور استنارة لكون العقل أصبح قادرا على طرد ظلام الجهل، والحد من الأهواء، ونفي الغيبيات وتجنب التعصب.

لقد رأى العهد الإغريقي–الروماني ممثلا في عصري «بريكليس» (Le Siècle de Péricles) وأغسطس (Auguste)، وعصر النهضة بارزا في «مديتشي» (Médicis)، وفترة التنوير في عصر الملك لويس الرابع عشر (Louis XIV)، وفي المقابل رأى في العصر الوسيط أكثر فترات التاريخ الأوربي ركودا، فالعقل منعدم، وحتى الفلسفة المدرسية لتوما الاكويني اعتبرها ابنة غير شرعية لفلسفة أرسطو، فهي مشوهة الترجمة وقاصرة الفهم، قد أساءت إلى العقل أكثر مما نفعته، كما أن الفن القوطي الذي تعكسه الكاتدرائيات تسوده الخرافة، وأن الحروب الدينية التي

تطبع هذا العصر هي من آثار التعصب الديني الأعمى للبابوات ورجال الكنيسة الذين يصفهم بقوله: «كانوا يلبسون مسوح الرهبان وهم سفاكو الدماء، متحالفون مع الملوك، مستبدون طغاة، ارتكبوا أبشع الفواحش ثم غرروا بالجماهير الساذجة ببيع العفو عن المعاصي بصكوك الغفران ...».

إنّ المؤرخ والحالة هذه يجب حسب رأي فولتير أن يوقع شعار: «اسحقوا الفجور، اقضوا على الفضيحة (L'infamie) فهي أكبر عقبة في سبيل تقدم الجنس البشري»، هذا التقدم الذي لا يعني عند فولتير أبدا التقدم المستمر نحو الكمال بل قد تتخلله إنعكاسات وقد تعقبه فترات تراجع مثل انتكاسة الدولة الرومانية التي أعقبها العصر الوسيط، وبزوغ العصر الكلاسيكي من ثنايا العصر الوسيط، فالتاريخ حسب هذه النظرة التي شارك فيها فولتير المؤرخ فيكو ليس دوما حركة صاعدة ولهذا ليس في وسع الإنسان سوى التفاؤل بالفشل.

تكمن القيمة التاريخية لفولتير في أنه عبّر بصدق عن قناعته الفكرية، وعن مطالب طبقة البورجوازية، فهو فيما عرضه من أفكار لم يكن أبدا خصما للملكية، ولم يقف موقفا معاديا من السلطة، التي يتصف بها الحكم الملكي، بل اعتبر ذلك مفيدا أن لم يكن ضروريا لتحقيق النهوض والتطور إذا ما استرشد الحكام ورجال السياسة بآراء المستنيرين والحكماء، ومن هذا الجانب فإنّ فولتير يمكن اعتباره من المفكرين الذين أرسوا مبادئ العلم التاريخي ذلك من حيث نظرته للتاريخ وتقييمه للأحداث، لكنه من حيث المنهج الذي اتبعه والطريقة التي التزم بها يعتبر بحق من هواة التاريخ لأنه لم يوفق في تحسين أساليب البحث التاريخي إلا بقدر ضئيل، فهو من حيث المنهج التاريخي اعتمد كثيرا على المؤرخين السابقين مثل صابيون وقلمومنت وعلماء البولاند.

إن ما ينقد عليه فولتير هو أنه أسرع إلى الكتابة في بعض المواضيع قبل استكمال المادة التاريخية أو الإنتهاء من التحقق في صحة المعلومات التي إطلع عليها وإن كان قد حاول الرجوع إلى الوثائق الأساسية في كتاباته، فضلا على إقدامه وجرأته في ابداء الرأي واستعمال النقد بدون تردد وهذا ما جعله يرى أن اقرار فعل واحد هو أفضل من عرض مائة رأي مناقض له (Un fait vaux mieux que cent antithèses) ودفع به هذا الرأي إلى اعتبار المؤرخ بمثابة المحاسب أو الكاتب المسجل للحقيقة (L'historien est comptable de la vérité). من خلال هذا الموقف نلاحظ أنّ فولتير لا يهتم كثيرا بالأحداث الجانبية للتاريخ، فالتفاصيل

عنده قد لا تهم، فهي بمثابة المتاع الذي يثقل الجيش، ولا يكون ضروريا للاستعمال (Les détails qui ne mènent à rien sont dans l'histoire, ce que les bagages dans une armée impédiment) ولعله في ذلك كان ينظر إلى المستقبل لا إلى الماضي، فهو يرى أن المبدأ العميق والحقيقي في التاريخ هو تقدم الفكر الإنساني وهذا ما أكده بقوله: «إن هدفي ليس هو تاريخ الحروب وإنما تاريخ المجتمع» ويؤكد هذا التوجه عندما يثير تساؤلا في رسائله الفلسفية عندما يقول: «أي هؤلاء الرجال أعظم الإسكندر أم قيصر أم تيمورلنك أو كرومويل؟ ثم يجيب أن إسحاق نيوتن هو أعظمهم جميعا بلا شك».

ومن هذا المفهوم فإن فولتير يرى أنّ ما هو جدير بالتسجيل حقا إنما يتعلق بالإنجاز الحضاري وبالأفكار، إذ يقول: «أنا لا أهتم بتاريخ الرؤساء الكبار، وإنما أنا قلق لأعرف ما هي الخطوات التي حاول الناس بها الإرتفاع من مستوى التوحش إلى سلامة العقل وصحته»، ولهذا عندما يتكلم عن «كولبير» يذكر أن ما سوف تعترف له به القرون الآتية هو أعماله ومنجزاته، وليس الطريقة التي كان يضع بها ربطة عنق لباسه الرسمي في المهام القضائية أو المناسبات الدينية (J'ai porté la vue sur ce qu'il a fait mémorable, sur la reconnaissance que les siècles à venir lui doivent non sur la manière dont il mettait son rabat).

هذا وقد جمع فولتير بين النظرة العلمية للأحداث والعرض الفني للمعلومات التاريخية، فكانت لغته واضحة تتميز بخفتها وصفاتها وابتعادها عن كل ما يثقل العبارة أو يفسد المعنى (Une illustration parfaite de la parole française, la netteté, la légèreté, et la limpidité, l'art consiste à mépriser l'artifice).

فالأسلوب عند فولتير يجعل من المؤرخ فنانا وفي نفس الوقت عالما، فهو مثلا يأخذ على ميزاري ودانيال كونهما لا يعرفان تصوير الأحداث وإثارة الإحساس بها، مؤكدا أنه في التاريخ يجب أن يؤخذ ما هو موجود في القطعة المسرحية من عرض وعقدة ونهاية: (Mezaray et Daniel m'ennuient, c'est qu'ils ne savent ni peindre ni remuer les passions. Il fait dans une histoire, comme dans une pièce de théâtre, exposition, noeud et dénoement ...)

بهذه النظرة التي حاولت تلخيص ما جادت به قريحة الفكر البشري، وبهذا الأسلوب للتاريخ الذي يعتمد على استعمال الفكر والعقل واستخدام النقد والتمحيص والتحليل والحياد كان لفولتير تأثير كبير على الكتاب والمؤرخين الذين

عاصروه أو أتوا بعده مثل دافيد هيوم David Hume (1776-1711) الفكر الاقتصادي، والمؤرخ الانكليزي، وادوارد غيبون E. Gibbon (1794-1737)، المؤرخ الانكليزي صاحب كتاب «اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية» ووليم روبيرتسون W. Robertson (1793-1721) المؤرخ الاسكتلاندي صاحب كتاب «تاريخ عهد الامبراطور شارل الخامس» وأرنولد هيرن A. Heeren (1842-1760) المؤرخ الألماني المهتم بالتاريخ القديم والمتأثر بالنظرة الاقتصادية، كما كان لعقلانية فولتير وقلة احساسه العاطفي ردّ فعل في العديد من كتابات معاصريه مثل: جان جاك روسو J.J. Rousseau (1778-1712) أو المتأخرين عنه مثل توماس كارلايل وجول ميشلي رائدي المدرسة الرومانطيقية في القرن التاسع عشر.

جـ - ديدرو (1784-1713): ولد دونيس ديدرو بلانجر (Langres) سنة 1713، من عائلة فقيرة وتعلم بمدارس الجزويت بمسقط رأسه ثم تابع دراسته بباريس، وبعد تخرجه (1732) عاش حياة صعبة وقلقة فقد أثناءها إيمانه واضطر إلى التنقل، وأثناء ذلك تعرف على روسو 1742 وتوسعت معارفه فعرف بعمق أفكاره وحداثة آرائه وذكائه وجرأته في معالجة القضايا الفكرية، فقد جمع عقلانية فولتير وعاطفة روسو، وقد عدّ فيلسوف الثورة الصناعية بفرنسا لمناداته برفع شأن العلوم والفنون الطبيعية، والدعوة إلى تحرّر العقل، فكان نظير فرانسيس بيكون بانكلترا، وقد ذاق السجن لمدة نصف سنة بحصن فانسان Chateau de Vincennes (1749) جزاء له على أطروحاته الجريئة، فأصبح مثار اهتمام الناس فزاره روسو في سجنه، وقد اضطره الاعتقال إلى إتخاذ موقف أكثر حذرا عندما تولى مهمة نشر الموسوعة (Encyclopédie)، فجعل منها معلمة علمية في المعارف الاجتماعية وأداة حرب إيديولوجية موجهة لتفتيت النظام القديم وقد تحمل القسط الأكبر في إخراجها، وقد وجد المساعدة في ذلك من دالمبير خاصة.

ضمن ديدرو العديد من مقالاته في الموسوعة أفكاره الثورية التي سوف يكون لها تأثير على الثورة الفرنسية، كما كتب العديد من الكتب والمقالات أهمها: الأفكار الفلسفية Les pensées philosophiques (1746)، وأضاف لها ملحقا L'addition (1770)، مما جعلها أهم كتبه وأكثرها عمقا وقد عبر فيها عن آرائه التحررية، وله أيضا رسالة العميان لمنفعة المبصرين Lettre sur les aveugles à l'usage de ceux qui voient (1749) جعلها مقدمة لنظريته حول التطور وكانت سببا في سجنه، بالإضافة إلى مؤلفه آخرنزهة الشك La promenade sceptique (1747).

تبرز أفكار ديدرو وآراءه فيما كتبه في النقاط التالية:

1 - **مهاجمة المسيحية والدعوة إلى الدين الطبيعي** La religion naturelle: وقد مهّد بذلك لظهور دعائم الدين الطبيعي الذي نادى به «روبيسبيير» الذي خطب في الجمعية التأسيسية الفرنسية يوم 7 ماي 1794 معبرا عن آراء ديدرو بقوله: «إنّ القساوسة بالنسبة للروح هم بمثابة المشعوذين بالنسبة للطب، إنهم صنعوا الله وفق طريقتهم، لقد صنعوه غيورا، طاغيا، قاسيا، وعاملوه معاملة أمناء القصور لخلفاء كلوفيس عندما حكموا باسمه، لقد نفوه إلى السماء، ولم ينادوه في الأرض إلا لغرض طلب العشور والثروات والشرف واللذة والقوة. إنّ القس الحقيقي للكائن الأسمى هو الطبيعة؟ ومعبد هذه الطبيعة هو الكون وعبادتها هي الفضيلة، وأعراسها هي أفراح شعب كبير، وضع نصب عينيه أوثق عرى الأخوة العالمية لأجل أن تقدم له ولاء قلوب رقيقة وسليمة».

2 - **المناداة بالحرية والتنديد بالإستبداد**: فقد دعا ديدرو إلى التقدم والتطوّر، فهو يقول: «إنّ الأنوار ستبدد شوائب الظلام الكبرى التي كانت تغطي سطح الأرض .. إنّ الإنسان يملك حقا غير قابل للنقاش في الحرية السياسية، وأن المواطنين قد أرادوا طوعا أن يتجردوا من جزء من استقلالهم ليوكلوه لسلطة لم تكن سوى مندوبة عنهم».

3 - **القول بالفكرة النسبية في فهم الأخلاق وفي الحكم على الأشياء**: فقد شكك ديدرو في قدرة الإنسان عامة في الحكم الموضوعي وربط بين تكوين المنطق الذي نحكم به على الأشياء، وبين الإحساسات التي نستمدها من الطبيعة والحياة والمجتمع، وانتهى إلى أنّ الحكم الموضوعي ممكن لو أننا استطعنا أن نزيل أسباب العمى والصمم التي تخرّب حواسنا وتزيف إحساسنا بصورة مؤقتة أو دائمة، وللتأكيد على نسبية الحكم يقول في رسالة العمى: إننا نأسى لحصان يتألم ولكننا نسحق نملة دون أدنى تفكير رغم أن مبدأ الإنفعال فينا واحد .. وآه يا سيدي، ما أعظم الفرق بين فكرة الأخلاق عند العميان وفكرة الأخلاق عندنا ...

4 - **تحديد دور المفكر أو الفيلسوف في المجتمع في خدمة الأخلاق، والسعي لتحقيق السعادة ونشر الخير**: فصاحب الفكر عند ديدرو هو المرشد والمدافع والمرجع، إذ يقول: «إن القاضي يرد العدالة، وأن الفيلسوف هو الذي يعلمه ما هو

العدل وما هو الظلم، وأن الجندي يدافع عن الوطن، وأن الفيلسوف يعلمه ما هو الوطن، وأن الكاهن يوصي الشعب باحترام الآلهة، وأن الملك يأمر الجميع وأن الفيلسوف يعلمه أصل سلطته وحدودها».

د – كوندروسي (1743-1794): ولد كوندروسي سنة 1743 وتعلم بمدارس الجزويت وأصبح صديقا لفولتير وتارغو وحضر منتديات الفكر في صالون الآنسة دوليبيناس ثم أصبح صالونه منتدى علميا بعد زواجه من صوفيا ميروتش، اشتهر بمعارفه العلمية والرياضية وبآرائه الاجتماعية والفلسفية، وعدّ مصلحا اجتماعيا ضمن الفلاسفة الموسوعيين، فقد ساهم في نشر كتب فولتير وفي تحرير الموسوعة، وفي اكتشاف نظرية الاحتمالات وامكانية تطبيقها في العلوم الاجتماعية. وأصبح عضوا في الأكاديمية الفرنسية (1769)، وشغل منصب وزير المالية وعيّن عضو لجنة التعليم في المجلس التشريعي، وساهم في المناقشات التي لم يؤخذ بها عام 1793، وعارض أحكام الإعدام، كما لم يوافق على إعدام الملك لويس السادس عشر، ورغم نزعته الثورية فإنه اختفى بعد صراع الجيروند مع اليعاقبة وتعرض للمطاردة من طرف السلطات (Les Conventionnels) فاعتقل ومات في أول ليلة له بالسجن (1794).

ترك كوندورسي العديد من الدراسات منها:

- محاولة لتطبيق تحليل نظرية الإحتمالات (1785) (Essai sur l'application de l'analyse à la probabilité des décisions rendues à la pluralité des voix).
- عرض لوضع لوحة التقدم النفس الإنسانية (1785) (Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain).

وهذه المحاولة تعتبر أهم ما كتبه، فقد حرّرها ما بين سنتي 1793 و1794 عندما كان سجينا ينتظر إعدامه، فدفعه ذلك إلى أن يمني نفسه بمستقبل مثالي يختفي فيه الطغاة وأرقاؤهم كما يختفي فيه القساوسة وأذنابهم، ويصبح من الممكن الإستمتاع بالحياة والحرية في رعاية سلطان العقل، وتتبع فيها تقدم العلوم والحضارة منذ العصور البدائية وأبدى اعجابه بإنجازات القرن الثامن عشر، وما يمثله فلاسفته من دعوة للعقل (Raison) والتسامح (Tolérance) والإنسانية (Humanité).

وفي القسم الأخير من كتابه هذا أظهر اعتقاده في تحقيق التقدم في المستقبل من خلال المساواة، فقد بين كوندورسي في القسم الأخير من هذه اللوحة أنّ الإنسانية تطورت عبر عشر مراحل أساسية هي:

- **المرحلة الأولى**: اجتمع فيها الأفراد على هيئة عشيرة، حدد فيها رؤساء العشيرة التنظيمات الاجتماعية والأخلاقية وفيها تكونت مفاهيم بدائية عن الكون.

- **المرحلة الثانية**: مثلها عصر الأقوام الرعاة، واستأنس فيها الإنسان الحيوان، وعرف بعض الحرف وظهرت فيها المقايضة والسخرة التي ارتبطت بالسلطة الدينية.

- **المرحلة الثالثة**: وهي عصر الزراعة واختراع الكتابة، فقد ارتبط قيام الزراعة بشروط التربة والمناخ ووجود حيوانات مستأنسة وأدوات مخترعة، ولتعلق المزارعين بالأرض فقد خضعوا أحيانا للغزاة، فنشأ بذلك الرق، وتطور النظام الإقطاعي (نبلاء ورقيق للأرض) وأثناء ذلك نشأت التجمعات البشرية الأولى (المدن) وظهرت بعض المعارف للحاجة إلى تصريف الإنتاج وضروريات الحياة، وإن بقيت منحصرة في رجال الدين.

- **المرحلة الرابعة**: تم الإنتقال فيها من التدوين إلى تقسيم العلوم، وقد ظهرت الخطوات الأولى للتقدم البشري، متمثلة في اسهام اليونان لعدم وجود طبقة الكهان الذين يحتكرون العلم، كما كان الحال في الشرق، فنشأ الفكر حرا مزودا بمعارف الشرق ومعتقداته، وظهر الإسهام في العلوم الرياضية والفلسفية والسياسية والأدبية (رياضيات فيتاغورس، آلية ديمقرطيس، فلسفة أرسطو).

- **المرحلة الخامسة**: تميزت بتقدم المعارف، فاستقلت فيها بعض العلوم كالرياضيات والطب منذ عهد أرسطو وطبق المنهج الفلسفي على الخطابة والشعر، وورثت روما التراث الإغريقي، فكانت لها مساهمة في ميدان التشريع، وإقرار الحرية الدينية المتمثلة في الجمع بين كل الآلهة مما مهد الأذهان إلى فكرة الله الواحد التي انتصرت بانتشار المسيحية التي صاحبها ضعف الامبراطورية وتدهور العلوم الفلسفية بعد أن ظلت مدرسة الإسكندرية تحتضنها، وذلك قبل أن يأمر بإغلاق المدارس الفلسفية الأباطرة الذين اعتنقوا المسيحية.

- **المرحلة السادسة**: انحطت أثناءها العلوم قبل أن تبعث من جديد، وذلك لإنتشار الجهل وشيوع الفساد وسيادة حكم القوة بفعل هجمات البرابرة